

السيد
الاعوان

الأستاذ

تصديرها كلية التربية بجامعة بغداد

واردته

المجلد العاشر

بعضديه

١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

الأفعال الناقصة

كان واخواتها

الدكتور محمود غناوى الزهري

الاستاذ فى قسم اللغة العربية

١ - فعل تام وفعل ناقص :

يقسم النحاة الفعل قسمين : أحدهما الفعل التام ، وثانيهما الفعل الناقص ، وقد عرفوا الفعل التام بأنه الفعل الذى تتم به وبمرفوعه جملة كقام محمد أما الفعل الناقص فقد عرفه بعضهم بأنه الفعل الذى لا تتم الجملة معه إلا بمرفوع ومنصوب. (١) أو بأنه الفعل الذى لم يكتف بمرفوعه ، كما عرفه فريق آخر بأنه الفعل الذى قد سلب الدلالة على الحدث وتجرّد للدلالة على الزمان. (٢) وبناء على هذا تكون « كان واخواتها » وأفعال المقاربة من الأفعال الناقصة التى فقدت الحدث واحتفظت بالزمان فقط . وقد أجمع النحاة على أن هذه الأفعال تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الأول ويسمى اسمها وتنصب الثانى ويسمى خبرها ، وفى ذلك يقول ابن مالك فى ألفيته : (٣)

نرفع كان المبتدأ اسماً والخبر متبوعاً
تنصبه ككان سيّداً عمر

٢ - قسمة باطلة :

يعرّف النحويون الفعل بأنه ما دلّ على معنى بنفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة وهو - أى الفعل - فى اللغة نفس الحدث الذى يحدثه الفاعل من قيام أو قعود أو نحوهما. (٤) ومن هذا يتبين لنا أن الفعل يتألف من شيئين هما الحدث والزمان ، إلا أن الحدث هو المقصود من الفعل ، قال ابن يعيش : إنما وضع - يعنى الفعل - دليلاً على الحدث المقترن بالزمان والاقتران وجد تبعاً. (٥)

(١) شرح الرضى على الكافية ص ٢٧٦ طبعة ايران .

(٢) شرح التصريح على التوضيح [١٩٠/١] الطبعة الثالثة ١٩٢٥

(٣) شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك [٢٢٦/١] الطبعة التاسعة ١٩٥٦

(٤) شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب لابن هشام الانصارى [ص ١٤] الطبعة السابعة ١٩٥٧

(٥) شرح المفصل تأليف ابن يعيش [٣/٧] طبعة محمد منير الدمشقى .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الفعل الناقص يجب أن يكون هو والفعل التام مشتركين في هذا التعريف من جهة ، كما يجب أن يكونا مختلفين بعد ذلك في أمور فرعية ؛ لاتمسّ جوهر الفعل من جهة أخرى ليصحّ أن يكون كلاهما قسماً قائماً بذاته مع محافظته على طبيعة الفعل التي اعترف بها النحاة له • وعلى هذا الأساس يكون تعريف النحاة للفعل الناقص بأنه ما لا تتم الجملة معه إلا بمرفوع ومنصوب تعريفاً غامضاً أو قل : انه تعريف غير مانع كما يقول أهل المنطق ، ذلك لأنه يصدق على الفعل التام المتعدّي كضرب مثلاً فالجملة مع هذا الفعل لاتتم إلا بمرفوع ومنصوب أي بفاعل ومفعول به ، فأنت إذا وقفت عند الفاعل فقلت : ضرب زيد كانت الجملة ناقصة ، لا يحسن السكوت عليها ، كان معناها لغواً وعبثاً • ومن هنا كان هذا التعريف تافهاً إذ لم يستطع أن يدعم وجهة نظر النحويين في أن الفعل الناقص موجود حقيقة في اللغة العربية •

على أن فريقاً من النحاة قد شعروا بضعف هذا التعريف وقصوره عن تبيان الحدود الواضحة للفعل الناقص ، فاضطروا الى القول بتعريفهم الثاني ؛ ذلك التعريف الذي ينصّ على أن الفعل الناقص انما سمّي ناقصاً لأنه سلب الدلالة على الحدث وتجرّد للدلالة على الزمان ، وهذا يعني أنه فقد الحدث ، فقد معناه ، وبقي دالاً على الزمان وعلى الزمان فقط • (١) ونحن ، بعد هذا ، نتساءل فنقول : أي فعل هذا الذي يفقد معناه فيصبح جثة هامدة ، ثم يعدّ فعلاً بين الأفعال ؟ أيصحّ عقلاً أن يجمع بين الفعل الدال على الحدث وبين الفعل الذي لا يدلّ على حدث في اطار وتحت عنوان واحد وقسم واحد من أقسام الكلمة ؟! وهل هناك معنى للفعل غير الحدث ؟ لاشكّ عندي في أنّ الجواب لا بد أن يكون نفيّاً باتاً •

ولعلك تستطيع أن تتبين مما تقدم أن الفعل الناقص كما عرفه النحاة لا يمكن أن يكون قسماً للفعل التام ، لسبب بسيط جداً ، هو أنّه ليس فعلاً ؛ لأنه لا يدخل في تعريف الفعل الذي قال به النحويون أنفسهم ، إذ أن الفعل من حيث معناه ، أو من حيث دلالاته على الحدث لا يمكن أن ينقسم الى فعل تام ذي معنى ، والى فعل ناقص لا معنى له بل لا بدّ من توفر الحدث في أي نوع من انواع الفعل ليصحّ ان يسمّى فعلاً • وقديماً

قال ابن يعيش : الفعل في الحقيقة ما دلّ على حدث والحدث الفعل الحقيقي فكأنه سمى باسم مدلوله • (١) وبذلك يكون تقسيم الفعل على النحو السابق تقسيماً باطلاً لا يستند الى واقع ولا الى منطق معقول ••

٣ - ليس للفعل الناقص وجود :

أحسب أن القارئ الكريم سيفزع من هذا العنوان ، أريد أن أقول انه سيسخر منه سخراً شديداً ؛ فقد ألفنا ، وألف الناس معنا « كان وأخواتها » و « كاد وأخواتها » أقول لقد ألفنا وألف الناس معنا هذه الاخوات والقريات وألفنا غيرهن كثيرا في تلك السلسلة الطويلة التي تنتظم موضوعات النحو الفأ شديداً منذ الصغر ، وحفظنا ، فيما حفظنا ، هذه القاعدة الخالدة القائلة بأن « كان وأخواتها » هي أفعال ناقصة ، وأنها تعمل في المبتدأ والخبر عملاً خاصاً بها أشرنا اليه قبل قليل • وأنت ، أيها القارئ الكريم ، تعلم علم اليقين ما للالف والعادة والمران من أثر شديد في النفس وفي العقل أيضاً يصعب أن يتحرر منه الانسان ، بل يشق عليه أن يفكر فيه مجرد تفكير ، بيد أنني بالرغم من ذلك وجدت في نفسي شعوراً حملني على الخروج على هذه القاعدة الخالدة منذ زمن ليس بالقصير ؛ فقد راودني احساس عميق بأن كان وأخواتها وقرياتهما انما هي أفعال مفترى عليها ، حين حكم عليها أهل النحو بالنقصان ، وخيل الى من خلال هذا الاحساس أنها أفعال تامة ، تتمتع بجميع خصائص الفعل من دلالة على الحدث ، واكتفاء بالرفوع ، وتجاوز لهذا المرفوع الى المنصوب على نحو ما نراه في الأفعال الاخرى • وكل ما هنالك من فرق بينها وبين هذه الأفعال هو أنها أفعال قد استعملت بعد فترات طويلة من التطور اللغوي استعمالاً خاصاً في بعض وجوه استعمالها في اللغة • وقد دفعني ذلك كله الى دراسة هذا الموضوع في مصادره الأولى ، فعثرت فيها على ما يبعث في النفس العجب كل العجب ، العجب لهذا الباطل كيف يكتب له الذيوع والانتشار ، والعجب لهذا الحق كيف يحكم عليه بالتواري والاستتار • عثرت في هذه المصادر على آراء مهمة وخطيرة ، تدل بوضوح ما بعده وضوح على أن هذه الأفعال تامة ، وأنها بريئة من النقصان • ولا أريد أن أطيل عليك الكلام ، وانما أريد أن أدون لك ما قاله الرضى الاستربادي في هذه الأفعال لتقرأه وتدبره وترى رأيك فيه وهذا نص كلامه (٢) :

(١) شرح المفصل ٧/٧٩

(٢) شرح الرضى على الكافية ص ٢٧٦

« ... وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة لأنها تدل على الزمان دون المصدر ليس بشيء ، لان كان في نحو كان زيد قائماً يدل على الكون الذي هو الحصول المطلق وخبره يدل على الكون المخصوص وهو كون القيام أي حصوله ، فجيء أولاً بلفظ دال على حصول ما تم عين بالخبر ذلك الحاصل ، فكأنك قلت : حصل شيء ثم قلت حصل القيام ، فالفائدة في إيراد مطلق الحصول أولاً ثم تخصيصه .. وهناك فائدة أخرى وهي دلالة على تعيين زمان ذلك الحصول المقيد ، ولو قلنا قام زيد لم يحصل هاتان الفائدتان معاً . فكان يدل على حصول حدث مطلق ، تقييده في خبره ، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق ، تقييده في كان ، لكن دلالة كان على الحدث المطلق أي الكون وضعية ، ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية .. وأما سائر الأفعال الناقصة نحو صار الدال على الانتقال ، وأصبح الدال على الكون في الصباح أو الانتقال ، ومثله أخواته ، وما دام الدال على معنى الكون الدائم وما زال الدال على الاستمرار وكذا أخواته ، وليس الدال على الانتفاء ؛ فدلالته على حدث معين لا يدل عليه الخبر في غاية الظهور ، فكيف يكون جميعها ناقصة بالمعنى الذي قالوه .. »

وواضح جداً من كلام الرضى أنه يرفض الرأي القائل بنقصان هذه الأفعال ، ويؤكد أن دلالتها على الحدث في غاية الظهور . ولكنه مع ذلك كله يسميها أفعالاً ناقصة مجازة للرأي السائد في كتب النحو ومسائرة للتيار الجارف الذي لا يقوى على الوقوف أمامه أحد .

٤ - اقوالهم تدينهم :

بالرغم من أن النحاة كانوا حراساً على إثبات نقصان هذه الأفعال ، وأنهم كانوا يعتبرون هذا النقص حقيقة لا شك فيها فينون آراءهم على هذا الأساس ، أقول بالرغم من ذلك كله أفلت منهم آراء وأحكام في أثناء مناقشتهم وتأويلاتهم تدل بوضوح على عكس ما يصفون ويصنعون ويقصدون . فقد كان الحق يغلبهم فيجربى على ألسنتهم حتى اذا شعروا بالخرج تكلفوا العلل ، وزوروا التأويلات ، وزعموا لهم نصراً مزيفاً في معركة هم فيها الخصم والحكم .

أ - من هذه الآراء : رأى الكوفيين في اعراب معمولى كان وأخواتها ، فالكوفيون شعروا ، على ما يظهر ، بقصور الرأي الشائع بين النحويين في اعراب ما دخلت عليه

كان فذهبوا الى أن خبر كان وأخواتها منصوب على أنه حال ، ففي كتاب « الموفى فى النحو الكوفى » نجد هذا التعريف (١) : « الأفعال الناقصة : ما لم يتمّ كلاماً الا بحال • » وذهبوا الى أن الاسم الذى بعد كان يعرب فاعلاً • فقد قالوا (٢) : « • • • ولا يكون - أى الحال - معرفة الا اذا كان صاحبه فاعل النواقص • » ومعنى ذلك أن الكوفيين يعربون (زيد) فاعلاً ويعربون (قائماً) حالاً منه فى نحو قولك « كان زيد قائماً » وقد ردّ الكوفيون على البصريين حين اعترض عليهم هؤلاء فى هذا الصدد اذ قالوا (٣) : « ولا يجوز أن يقال انه لو كان نصباً على الحال لما جاز أن يقع معرفة فى نحو : كان زيد أخاك ، وظننت عمراً غلامك ، والحال لا تكون معرفة ، لانا نقول : انما جاز ذلك لان أخاك وغلامك وما أشبه ذلك قام مقام الحال ، كقولك : ضربت زيدا سوطاً ، فان سوطاً ينتصب على المصدر وان كان آلة لقيامه مقام المصدر الذى هو ضربه ، وكذلك ها هنا ، على أنه قد جاءت الحال معرفة فى قولهم « أرسلها العراك وطلبتة جهداً وطاقتك ، ورجع عوده على بدئه الى غير ذلك فدل على صحة ما ذهبنا اليه » •

ب - ومن هذه الآراء : أن النحويين يقسمون الأفعال الناقصة الى ثلاثة أقسام من حيث التصرف وعدمه ، قسم لا يتصرف مثل ليس ، وقسم يتصرف تصرفاً ناقصاً نحو مازال وأخواتها اذ لا يأتى منها الامر ولا المصدر ويعللون ذلك بعدم دلالتها على الحدث وقسم ثالث يتصرف تصرفاً تاماً وهو الباقي من الأفعال الناقصة وذلك لمجيء الأمر والمصدر منها ، ويذكرون أن مصدر كان الكون ، والكيونة ، ومصدر أضحى وأمسى وأصبح الاضحاء والأسماء والاصباح ومصدر صار الصير والصيرورة ومصدر بات البيات والبيتوتة ، ومصدر ظل الظلول • ثم يضيفون الى ما تقدم قولهم : وللتصاريح فى هذين القسمين وهما المتصرف التصرف التام والتصرف الناقص ما للماضى من العمل • (٤)

ويأتى ابن مالك فينظم هذا المعنى كله فى ألفيته اذ يقول :

وغير ماض مثله قد عملا ان كان غير الماض منه استعمالا

(١) ص ١٣٢ تحقيق محمد بهجة البيطار ، وشرح التصريح على التوضيح ١/١٨٤

(٢) الموفى فى النحو الكوفى ص ٢٨

(٣) الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين تأليف ابن الانبارى

النحو ٢/٤٩٠

(٤) شرح التصريح على التوضيح ١/١٨٦

ويتسابق النحويون في ايراد شواهدهم على عمل غير الماضي من هذه الأفعال عمل الماضي ان كان غير الماضي منها مستعملا في اللغة ، فجاءوا بقوله تعالى « ويكون الرسول عليكم شهيداً » شاهداً على عمل المضارع من كان وقوله تعالى « كونوا قوامين بالقسط » شاهداً على عمل الامر • وأوردوا قول الشاعر :

وما كل من يبدى البشاشة كائناً أخاك ، اذا لم تلفه لك منجداً

شاهداً على عمل اسم الفاعل • وقول الشاعر :

بذل وحلم ساد في قومه الفتى وكونك اياه عليك يسير

دليلاً على عمل المصدر عمل فعله وهو كونك ، قال في التصريح كونك مبتدأ وهو مصدر مضاف الى اسمه وهو كاف المخاطب وياه خبره من جهة نقصانه •

وقد أوردوا غير ذلك من الشواهد مما لا مجال لذكره الآن (١) •

وأنت اذا أمعت النظر قليلاً فيما تقدم تلاحظ في سهولة ويسر تناقض النحويين مع أنفسهم ، أعني تناقض أقوالهم في المسألة الواحدة ، وهل تريد دليلاً على هذا التناقض أقوى من جعلهم عدم ورود المصدر والامر من أفعال القسم الثاني دليلاً على فقدانها الحدث ، دليلاً على نقصانها ، بينما نراهم لا يعدّون مجيء الامر والمصدر من أفعال القسم الثالث دليلاً على تمامها ؟ على أنه لو وقف النحويون عند هذا الحدث وأسم يتجاوزوه لهان الامر ولكنهم تعدّوه الى ما هو أغرب من ذلك ، فقد زعموا أن هذه التصاريح التي جاءت من أفعال القسم الثالث هي ناقصة أيضاً ، ولذلك فهي تعمل عمل الماضي • وأنا لا أدري في هذا المقام ممّ أعجب ، أعجب من عقلي القاصر الذي لا يستطيع مثل هذا الكلام ، أم أعجب من النحاة الذين ابتكروا هذه القواعد وطلبوا الى الناس أن يتعلموها وأن يؤمنوا بها؟! أنا اعترف لك أيها القارئ بأنني لا أستطيع أن أفهمها على النحو الذي يريده النحاة ، فظنّ بي ما شئت من الظنون • ولكن ألم يعرف النحاة المصدر بأنه اللفظ الدال على الحدث مجرداً من الزمان أو بأنه اسم الحدث الجارى على الفعل ؟ نعم ! ألم يقولوا ان اسم الفاعل هو ما اشتق من فعل لمن قام به على معنى الحدوث ، أو انه صفة تؤخذ من الفعل المعلوم ، لتدل على معنى وقع من الموصوف بها ؟

(١) المصدر السابق ١٨٧/١ وشرح ابن عقيل ٢٣٢/١ - ٢٣٤

بلى ! اذن ما بالهم يتجاهلون كل هذا ويرمون المصدر واسم الفاعل بالنقص ؟ أفلم يتبهاوا الى أن المصدر اذا فقد الدلالة على الحدث لم يبق منه أثر ، والى أن اسم الفاعل اذا اتصف بالنقص لم يبق منه الا الموصوف ؟

ليس من شك عندي في أن مجيء الامر واسم الفاعل والمصدر من هذه الافعال يعدّ دليلا قاطعا على تمامها ، فالفعل الذي يشتق من المصدر - على رأى البصريين - أو الذي يشتق منه المصدر - على رأى الكوفيين - يجب أن يكون تاماً لا ناقصاً ، اذ ليس من المعقول أن يأتي فعل ناقص من مصدر أو مصدر من فعل ناقص . ذلك لان المصدر يدل على الحدث دائماً ••

ج - ومن هذه الآراء ما ورد في كتاب (أسرار العربية) لابن الانباري (١) ، من أن بعض النحويين يذهبون الى أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا لانها لا تدل على المصدر ولو كانت أفعالا لكان ينبغي أن تدل على المصدر ولما كانت لا تدل على المصدر دلّ على أنها حروف • ثم أضاف ابن الانباري الى ما تقدّم قوله : والصحيح أنها أفعال وهو مذهب الأكثرين والدليل على ذلك من ثلاثة أوجه ؛ الوجه الأول : انها تلحقها تاء الضمير وألفه وواوه نحو كنت وكانا وكانوا كما تقول قمت وقاما وقاموا وما أشبه ذلك • والوجه الثاني : أنها تلحقها تاء التانيث الساكنة نحو كانت المرأة كما تقول قامت المرأة وهذه التاء تختص بالافعال • والوجه الثالث : انها تتصرف نحو كان يكون وصار يصير وأصبح يصبح وأمسى يمسي ، وكذلك سائرهما ما عدا ليس • وأما قولهم انها لا تدل على المصدر ولو كانت أفعالاّ لدلت على المصدر قلنا هذا انما يكون في الأفعال الحقيقية ، وهذه الافعال غير حقيقية •

في هذا الكلام مسألتان : الاولى أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا ، والثانية ان كان وأخواتها لا تدل على المصدر • أما المسألة الاولى فقد فنّدها ابن الانباري نفسه بأوجهه اثلاثة المتقدمة • وأما الثانية فقد سبق أن ذكرنا أن النحاة أنفسهم قد اعترفوا صراحة بأنّ لهذه الافعال مصادر ، وأن هذه المصادر تعمل عمل الماضي واستشهدوا على ذلك كما مرّ بنا •• ولكن ماذا يمكن أن يستنتج من هذا كله ؟ أما أنا فأستنتج منه في غير مشقة أن النحاة كثيرا ما يخبطون في بحوثهم خبط عشواء ، فهم ، حين يزعم بعضهم

أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالاً ينبرى فريق منهم آخر فيرهن بما لا مزيد عليه على أن كان وأخواتها أفعال وليست حروفاً ، ولكنهم لا يلبثون على هذه الحال الا قليلاً حتى يعاودهم الانحراف أو يخامرهم الداء - داء النقص - الذي رموا به كان وأخواتها ظلماً وعدواناً فيعتذروا عن عدم ورود المصدر من هذه الأفعال بأنه إنما يكون ذلك في الأفعال الحقيقية وهذه الأفعال غير حقيقية ويعنون بهذا أنها أفعال ناقصة ونسى هؤلاء أو تناسوا أن زملاءهم قد نصوا على وجود مصادر لأكثر هذه الأفعال كما مر بنا . . . على أننا نريد أن نسلمّ جدلاً بأن هذه الأفعال لا مصادر لها ، فهل يعنى هذا أنها ناقصة حقاً ؟ وإذا كان الامر كذلك ، فماذا يقول النحاة في أفعال المدح والذم ؟ بل ماذا يقولون في صيغتي التعجب ؟ أيعدونها أفعالاً تامة أم أفعالاً ناقصة ؟ لقد أعربوها اعراب الأفعال التامة دون أن يذكروا لنا مصادرهما . يضاف الى ما تقدم أننا لم نعرف أن هناك أفعالاً حقيقية وأخرى غير حقيقية .

د - ومن هذه الآراء ما ورد في كتاب معنى اللبيب لابن هشام الانصارى تحت عنوان « هل يتعلقان بالفعل الناقص » وذلك قول المؤلف (١) : « من زعم أنه - يعنى الفعل الناقص - لا يدل على الحدث منع من ذلك وهم المبرد والفارسي فابن جنى فالجرجاني فابن برهان ثم الشلوبين والصحيح أنها كلها دالة عليه الا ليس . »

وابن هشام الانصارى فيلسوف النحاة يسجل رأيه في الأفعال الناقصة في هذه العبارة بوضوح اذ يرى أنها تدل على الحدث ولكنه مع ذلك يرى أنها ما تزال ناقصة لسبب بسيط هو أنها لم تكن بمرفوعها ، وهو رأى طائفة من النحويين أيضاً منهم ابن مالك صاحب الألفية الذى قال (٢) : « وذو تمام ما برفع يكتفى . » وقد سبق أن بينا زيف هذا الرأي وتفاهته وعدم جدواه . ولكننا مع هذا نسأل ابن هشام وأصحابه فنقول : اذا كانت هذه الأفعال دالة على الحدث فمن ذا الذى يقوم بهذا الحدث ، ولئن يسند ياترى ؟ انه مما لا ريب فيه عندى أن الاسم المرفوع الذى يلي هذا الفعل جدير بأن يقوم به ، ولهذا فانه من الخطل أن نسمي هذا الاسم الذى هو مسند اليه لانه قام بالحدث اسماً لكان ولا نسميه فاعلاً لكان .

(١) ٤٣٦/٢ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد .

(٢) شرح ابن عقيل على الألفية ١/٢٤٠

على أن بعض النحويين قد شعروا بأنهم متعسفون في آرائهم فأرادوا أن يخففوا من وطأة هذا التعسف فجاءوا بتعريف غريب للأفعال الناقصة إذ قالوا (١) : « هذا باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر فترفع المبتدأ تشبيهاً بالفاعل ويسمى اسمها حقيقة وفاعلها مجازاً ، وتنصب خبره تشبيهاً بالمفعول ويسمى خبرها حقيقة ومفعولها مجازاً لأنها أشبهت الفعل التام المتعدى لواحد . » ونحن لا نعرف - فيما تعلمنا من النحو - هذا المبتدأ الذي يشبه الفاعل ، ولا هذا الخبر الذي يشبه المفعول ، وإنما الذي نعرفه هو أن الجملة العربية إما أن تكون فعلية مؤلفة من فعل وفاعل ، وإما أن تكون اسمية مؤلفة من مبتدأ وخبر . أما هذه الجملة التي يكون فيها الفعل مترجحاً بين التمام والنقصان ويكون فيها المسند إليه مبتدأ يشبه الفاعل ، وفعالاً يشبه المبتدأ ، أما هذه الجملة التي تكون في منزلة بين المنزلتين لتتخذ النحاة مما تورطوا فيه حينما زعموا أن هناك أفعالاً ناقصة ، فأمر لا نعرفه كما لا نعرفه قواعد النحو الأولى .

٥ - خاتمة :

لقد أظلت عليك - أيها القارئ الكريم - في غير حاجة إلى التطويل ، فالمسألة أيسر من ذلك بكثير كما يخيل إلى ، وإن كنت في شك مما تقول فإليك خلاصة رأينا :-
اقرأ هذين التعبيرين بامعان وتدقيق وهما : (جاء زيد راكباً وكان الله عليماً) فهل تجد بينهما فرقاً جوهرياً من حيث الاعراب ؟ ستقول : نعم ، وستعربهما اعراباً تقليدياً ، ستعرب التعبير الأول على أنه فعل وفاعل وحال ، وستعرب الثاني على أنه فعل ناقص واسمه وخبره . سيكون اعرابك على هذا النحو بحكم العادة والمران وادربة . ولكن هل لي أن أطلب اليك أن تقرأ التعبيرين السابقين ثانية بعد أن تحذف منهما الكلمتين الأخيرتين قراءة تدقيق وامعان أيضاً ؟ وهل لي أن أطلب اليك مرة أخرى أن تتذوق المعنى وان تدبره ولكن في معزل عن الأطار النحوي ؟ ان استجبت لهذا الطلب المتواضع فانك ستجد ، دون شك ، ان التعبيرين يدلان على معنى تام ، على معنى يحسن السكوت عليه ؛ فقد أسند المجيء الى زيد في أولهما كما أسند الكون أو الكينونة الى الله عز وجل في ثانيهما وفي كلا التعبيرين - كما ترى - توفر ركنا الجملة في اللغة العربية وهما المسند والمسند إليه . ثم دعني أثقل عليك مرة ثالثة فأطلب اليك أن تقرأ التعبيرين

المذكورين بعد أن تعيد اليهما ما حذف منهما • أعني أن تقرأهما على أصلهما •• ان فعلت ذلك ، فليس من شك في أنك ستحسّ احساساً عميقاً بأنّ هذين اللفظين الاخيرين (راكباً وعلماً) قد بيّنا هيئة المسند اليه في هذين التعبيرين ، والمسند اليه فيهما ، كما رأيت ، هو الفاعل لتقدم الفعل على المسند اليه ، أريد أن أقول انك ستضطر الى القول بأنهما لا يمكن أن يكونا الاّ حالين وانك ستؤمن ان عاجلاً أو آجلاً بأن اعراب (علماً) حالاً من لفظ الجلالة في هذا الموضع أجدى وأليق بالمعنى المقصود من اعرابها خبراً لكان على الطريقة التقليدية ، ذلك لان اعراب (علماً) خبراً لكان يعنى وصفه تعالى بالعلم في الزمن الماضي باعتبار (كان) لفظاً دالا على الزمان فقط كما يزعم النحويون بينما المقصود في هذا التعبير وصفه تعالى بالعلم بوقوع أو حصول شيء معين في وقت معين مثلاً ، وهذا معنى لا يؤدي بغير الحال • وقد عبر عن ذلك الامام الرضى بالكون المخصوص الذي يحصل في نطاق الكون المطلق الذي يستفاد من كان •

أما المفسّرون فقد شعروا بما يصيب معنى الآيات الكريمة من افساد اذا هم تابعوا النحويين في زعمهم انّ كان خالية من الحدث وانها دالة على الزمان فقط ولذلك نراهم ينصّون على أن لها معنى بل معاني ذكروها بالتفصيل • لقد قال السيوطي (١) : وتأتى (كان) بمعنى الدوام والاستمرار نحو وكان الله غفوراً رحيماً ، وكنا بكل شيء عالمين اي لم نزل كذلك • وعلى هذا المعنى تتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان •

وقال أبو بكر الرازي (٢) : « كان في القرآن على خمسة أوجه : بمعنى الازل والأبد كقوله وكان الله علماً حكيماً ، وبمعنى المضى المنقطع وهو الأصل في معناها نحو وكان في المدينة تسعة رهط ، وبمعنى الحال نحو كنتم خير أمة ، انّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وبمعنى الاستقبال نحو يخافون يوماً كان شره مستطيراً ، وبمعنى صار نحو وكان من الكافرين • »

ماذا ترى في هذين النصّين ؟ ألا يشيران الى أنّ كان تدل على الدوام والاستمرار والأزل والأبد والصيرورة ؟ أليس كل اولئك معاني لا تتخرج عن نطاق الكون والكيونة والوجود والحصول والوقوع ونحوها ؟ لا ريب عندي في أن الجواب نعم ! •••

ولعلك بعد هذا كفته قد ادركت أنتى أذهب الى أن كان وأخواتها هي أفعال تامة قاصرة تسند الى الفاعل فقط كقوله تعالى : وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة • وقد يؤتى بعد فاعلها بمنصوب هو وصف فضلة يبين هيئة الفاعل ولا يمكن أن يعرب الا حالا . وبعد ، لقد شغل النحاة أنفسهم بهذا النحو كما شغلوا الناس به مئات من السنين وسيشغلونهم به مئات أخرى اذا لم يتهيأ له من يعيد النظر فى أبوابه وقواعده وأحكامه وعمله لاختصارها وتيسيرها لجعله أداة نافعة للدارسين الذين يهمهم من النحو أن يقرأوا وان يكتبوا على وجه صحيح • ومن هنا نقول : لقد آن لهذا الليل البهيم أن ينجلي عن هؤلاء الصبية والصبايا فى حجرات الدرس ، كما آن للذين كتب عليهم السرى فى هذا الليل البهيم الطويل أن يستريحوا من وعناء الطريق قليلا ...

